نبوليون والعلم والعمران

(٣)

لا بدَّ لنا من ان نتم هذه الخلاصة التاريخية قبلما ننظر في موضوعنا الخاص وهو ما فعلهُ نبوليون للعلم والعمران فنقول

عاد نبوليون من مصر من غير ان يُلَمّ في فرنسا ما لقيهُ من الفشل في عكاء لكنهُ كان قد اذاع تغلبهُ على الجنود التركية التي جاءت القطر المصري لانقاذه منهُ فوقع هذا الخبر احسن وقع في فرنسا ابتهج لهُ الناس ورسخ في عقولهم ان نبوليون الرجل الوحيد القادر على احراز النصر في الخارج واصلاح الادارة في الداخل

وكان سياس(١) Sieyès احد المديرين يحاول القبض على زمام الحكومة ليخلصها من الفوضى التي كانت فيها ولكن يعوزهُ رجل مقدام يبدأ العمل .فلما وصل نبوليون اتجه فكرهُ اليهِ لكنهُ لم يفاتحهُ في ذلك لانهُ خشي ان يعصي هو في قبضة يده .فان نبوليون كان قد اثبت مقدرتهُ على اخضاع الرجال لارادته ولم يتضح لنبوليون اي حزب اصلح من غيره لينضم اليهِ . واخيراً اتفق سياس ونبوليون فكان من جراء ذلك انقلاب ٩ نوفمبر سنة ١٧٩٩ حينَ قُتّت الجمعية التشريعية وأُقيم ثلاثة قناصل خوّلوا القوة التنفيذية وقتيًا وهم سياس وروجه ديكو Roger-Ducos وبونابرت (اي نبوليون) وعهد اليهم في وضع دستور جديد فوضعوهُ وأُجيز في ١٣ دسمبر تلك السنة وجُعلت السلطة التنفيذية في يد نبوليون وكانبسرس (٢) Cambacéres ولبرون Lebrun ثم جعل نبوليون قنصلاً لعشر سنوات فصار الحاكم المطلق فعلاً ولو لم يكن اسماً لانهُ جعل الاثنين اللذين معهُ صفرين ولان سائر القوانين كانت ترمي الى حصر السلطة في صاحب السلطة التنفيذية. اما سياس فاقيم رئيساً لمجلس الشيوخ (السنا) .ولما تقرر امر الحكومة نشر نبوليون منشوراً اعلن فيهِ اعطاء الحرية الدينية ودبر التدابير الحربية اللازمة

(١) سياس او الاب سياس من اشهر رجال الثورة الفرنسوية واشدهم شكيمة كان لهُ شأن كبير في قلب الحكومة الملكية وتنظيم الجمعية الوطنية

(٢) سياسي مشترع وهو الذي نشر مشروع القانون المدني ثم صار وزيراً للعدلية

لاعادة الامن في البلاد الى نصابهِ فاستتب في شهرين من الزمان وحينئذٍ وجَّه همه الى خارج فرنسا فعرض الصلح على انكلترا والنمسا لكي يظهر للملا ان رغبته في السلم اشد من رغبتهِ في الحرب. لكن كان لا يزال بعيداً عن السلم خارب النمسا وقهرها في معركة مارنجو(٣) Marengo الشهيرة واعاد سلطة فرنسا الى ايطاليا. وحارب المانيا وقهرها واضطرها الى توقيع صلح لونفيل (٤) Lunéville الذي حلَّ بهِ التحالف ضد فرنسا وبسط السلم في اوربا. ووقَّع معاهدة اميان Amiens مع انكلترا في ٢٧ مارس سنة ١٨٠٢ وعاد الى باريس واعلام النصر تخفق فوق رأسهِ والسلم موطد في اوربا كلها يسيطر. فوجه عنايتهُ الى الاصلاح الداخلي واستخدم لذلك اكبر العقول واقدر رجال الاعمال وبث فيهم روحهُ روح النشاط وتذليل الصعاب. والقوانين المدنية والنظم الادارية التي وضعت حينئذٍ لا يزال اكثرها معمولاً بهِ حتى الآن

وكانت فرنسا قد سئمت الحكومة الجمهورية التي كانت فيها لكثرة معايبها فمالت الى الملكية وعرف نبوليون كيف ينتهز الفرصة ليستولي على عرش فرنسا. واتفق حينئذٍ ان كشفت مكيدة يراد بها اغتيالهُ فقبض على ١٣٠ من زعماء الجاكوبيين وتفاهم من فرنسا. وكان قد جُعل قنصلاً مدى حياتهِ بعد صلح اميان ولكن ذلك ليس اقصى ما يتوق اليهِ. فرأى ان يعود الى الحرب ليكسب فخراً جديداً يتوسل بهِ الى بلوغ امنيتهِ الكبرى وهي عزة الملك. ورأى ان خير وسيلة الى ذلك مناجزة انكلترا فنقض معاهدة اميان وطلب من انكلترا ان تمنع ما ينشر في بلادها انتقاداً على اعمالهِ وتحقيراً لها وان تطرد كل الفرنسويين الذين لجأوا اليها. وجعل يستعد لغزوتها واستولى على همبرج لكي يضيق خناق المانيا. وكان لهُ خصم عنيد في شخص مورو(٥) Moreau فاتهمهُ بمعالأة الملكيين ونفاهُ من فرنسا وكان قد ارعب الملكيين بقتل دوق انجيان(٦) Duc d' Enghien فاقتنع جمهور الفرنسويين ان السبيل الوحيد لراحة البلاد وسيرها في جادة المجد هو

(٣) مارنجو قرية على ثلاثة اميال من البسندريا بايطاليا
(٤) لونفيل بلد في فرنسا على ١٦ ميلاً من ننسي الى الشرق الجنوبي منها
(٥) هو الجنرال مورو قد نبوليون
(٦) ابن دوق لويس جوزف برنس كوندة

جوزفين زوجة نبوليون الاولى

ماري لويز زوجتهُ الثانية

نبوليون في كهولتهِ

منتطف سبتمبر ١٩٢٩

امام الصفحة ٢١٢

الاحتفال بزواج نبوليون بماري لويز

نبوليون وابنهُ ولي عهدهِ

نابوليون على ظهر السفينة الانكليزية ذاهباً به الى منفاه في جزيرة القديسة هيلانة

تمليكهُ عليها فاختار لقب امبراطور لانهُ حسبهُ يرضي الجمهوريين ولا يغيظ الملكيين فان معناهُ في الاصل امير او متسلط فهو مجرَّد من معنى الملك. فاقر مجلس الشيوخ ذلك في ١٨ مايو سنة ١٨٠٤ وتوَّج امبراطوراً على فرنسا وتوَّج زوجتهُ امبراطورةً في ٢ دسمبر ١٨٠٤ ثم تُوِّج ملكاً على ايطاليا في ٢٦ مايو ١٩٠٥

واستمرَّ الاستعداد على ساق وقدم لغزو انكلترا فقام الوزير بت Pitt في انكلترا واثار عليهِ ممالك اوربا فرأى نبوليون نفسهُ سنة ١٨٠٥ في حرب مع روسيا والنمسا وانكلترا واتضح لهُ حينئذٍ ان غزو انكلترا ضرب من المحال ولاسيما بعد ما اوقع نلسن بالعمارة الفرنسوية والاسبانية امام اسبانيا . فقام بجنودهِ وعبر المانيا وباغت جيوش النمسا وتغلب على الجنرال ماك Mack النمسوي في اولم وسار من هناك الى فينا واحتلها في ١٣ نوفمبر وكان في طاقة خصومهِ ان يحيطوا بهِ ويضيقوا خناقهُ هناك لولا ان امبراطور روسيا بادر الى مناجزتهِ في استرلتز(٧) Austerlitz قبل مجيئهم فانتصر نبوليون عليهِ انتصاراً باهراً فانفرط عقد خصومهِ وقضي على ما يلقب بالامبراطورية الرومانية المقدسة وثبتت امبراطورية نبوليون على قواعد متينة . وحينئذٍ حاول ان يعقد صلحاً مع روسيا وانكلترا ولا يشرك بروسيا فيهِ فاغتاظت بروسيا وعبأت جيشها لمحاربتهِ ورفضت روسيا ان تصالحه فهاجم بروسيا قبلما يأتيها المدد من نصرائها وقهرها في معركتي يانا Jena واورستت Auerstadt في ١٤ اكتوبر ودخل برلين في ٢٧ منهُ . ثم توالت المعارك مع الروس وانتهت بمعاهدة تلست Tilsit التي افتقدت بروسيا نصف املاكها واما روسيا فخرجت منها غانمة

هنا بلغ نبوليون اوج مجدهِ فصار الحكم المطلق في اوربا كلها ورئيس ملوك متحدين بعضهم من اخوتهِ واصهاره . فاستنبط القاب شرف جديدة كافأ بها انصارهُ . وكان لا يزال يضمر العداء لانكلترا فاستباح السفن الانكليزية وفرض على البلدان المتحالفة معهُ ان لا تتجر مع انكلترا ولا تدع سفن انكلترا تدخل مرافئها اما انكلترا فسبقتهُ واستولت على سفن الدنمارك. ووجه همتهُ الى اسبانيا والبرتغال فاستولى على مدريد وعزل ملك اسبانيا ونصب اخاهُ جوزف

(٧) مدينة في مورافيا بالنمسا

ملكاً عليها لكن الشعب الاسباني نقم عليه ذلك وجاء الجنرال ولسلي (دوق ولنتون) بالجيش الانكليزي الى البرتغال واخرج الفرنسويين منها وابتدأت حروب اسبانيا التي اضعفت نبوليون . ونهضت النمسا تريد مناوأته فزحف عليها مارًّا ببڤاريا واوقع بجيوشها ودخل ڤينا ظافراً . وفعل جيش ايطاليا الفرنسوي فعله ورد النمسويين الى المجر واتصل بجيش نبوليون وعبر الدانيوب وفاز فوزاً باهراً في معركة وغرام (٨) Wagram في ٥ و ٦ يوليو ١٨٠٩

كل هذا وكان قد بلغ من العمر ٤١ سنة وليس لهُ ولد يرثهُ فطلَّق زوجتهُ جوزفين واقترن بماريا لويزا ابنة امبراطور النمسا وذلك في اول ابريل سنة ١٨١٠ لكي يرث اولادهُ الدم النمسي فولدت لهُ ولداً ذكراً في ٢٠ مارس التالي لقبهُ ملك رومية

لكن هذا التقرب من النمسا غاظ قيصر روسيا فابى مقاطعة انكلترا فصمم نبوليون على مناجزتهِ في روسيا نفسها وسار بزوجتهِ الى درسن في ١٦ مايو سنة ١٨١٢ فقابلهما امبراطور النمسا وملك روسيا بالترحيب وسار من هناك على روسيا بجيش عرمرم فيهِ ستمائة الف مقاتل من الفرنسويين والالمان والايطاليين ووصل الى ڤلنا في ٢٤ يونيو فاخلاها الروس في ٢٨ منهُ فاقام فيها الى ١٦ يوليو وهو يجمع امرهُ للزحف على قلب روسيا وكأنهُ اوجس شرًّا فحاول ان يصطلح من قيصر روسيا لكن القيصر اجابهُ ان لا سبيل للصلح ما دام في ارض روسية فصمم على الزحف. ومن رأي الكولونل كيتن انهُ لو اسرع الى سمولنسك (٩) لقسم الجنود الروسية الى قسمين وسهل عليهِ مناجزة كل قسم على حدة لكنهُ تريَّث ولما بلغها تردَّد اولاً بين ان يشتي فيها او يتقدم الى موسكو ويقضي عليها فيكون لذلك تأثير ادبي في الروس يشلُّ اعصابهم لانها العاصمة القديمة. والظاهر انهُ اعتراه شيء من ضعف العزيمة فلم يجرِ على خطتهِ السابقة من مبادرة العدو باسرع ما يكون . واشتبك مع الروس في معركة بورودينو Borodino ففاز عليهم ولكنهُ التزم فيها الحذر الشديد فلم تكن فاصلة ولم يستفد من فوزهِ فائدة كبيرة

ودخل موسكو في ١٤ سبتمبر وفي اليوم التالي اضطرمت النيران فيها واستمرَّت

(٨) قرية في النمسا على ١١ ميلاً من ڤينا

(٩) Smolensk مدينة عاصمة مقاطعة باسمها في روسيا على ٢٥٢ ميلاً من موسكو بسكة الحديد

تأكلها الى العشرين منهُ فاحترق اكثرها وصار خراباً يباباً . ولو كانت معركة بورودينو فاصلة لترجح حينئذٍ طلب القيصر للصلح ولكنها لم تكن واشار عليهِ البارون ستين والجنرال السر روبرت ولسن بالصبر والتأني فوقع نبوليون في حيص بيص لانهُ كان يبادر الفرصة ويبني احكامهُ دائماً على الفوز فاذا وقع في الفشل اسقط في يدهِ . فتأنَّى وهو يضرب اخماساً لاسداس واخيراً صمم على مغادرة موسكو وكان فصل الشتاء قد جاء باكراً فافسد كل ما قدّرهُ وناله من المشاق في رجوعهِ ما يعجز القلم عن وصفهِ . قام من موسكو في ١٨ اكتوبر وبلغ بريسينا Beresina وليس معهُ سوى ١٢٠٠٠ وانضم اليهِ ايضاً الجنرالان اودينو Oudino وفكتور ومعهما ١٨٠٠٠ واعترضتهُ هناك جيوش الروس فقتلت واغرقت كثيرين من رجالهِ واسرت منهم ١٦٠٠٠ اما قوادهُ الثلاثة مكدونال ورنيه وشورزنبرج فعادوا على حدود بولندا وولايات البلطيك ومعهم ١٠٠٠٠٠ فوصلوا بهم الى فرنسا سالمين وهذا كل ما بقي من ذلك الجيش العظيم . لكن هذا الفشل لم يضعف عزيمة نبوليون بل اضرم فيهِ نار الهمة لكي يمحو عار الحملة الروسية . وفي العام التالي تألب عليهِ قيصر روسيا وملك بروسيا تفرج اليهما بجيش كبير (كان معهُ ١٥٠٠٠٠ ومع اخيهِ اوجين ٧٠٠٠٠ ومع داثو ٣٠٠٠٠) وفاز عليهما في عدة معارك صغيرة فقامت النمسا وطلبت بعض الامتيازات فاباها عليها فانضمت الى روسيا وبروسيا وعرضت الدول الثلاث عليهِ ان يخرج من غرب المانيا ويلغي دوقية ورسو ويتنازل عن اليريا فرفض اجابة هذه المطالب وكان قد صار معهُ ٤٠٠٠٠٠ مقاتل ومع خصومهِ ٥٠٠٠٠٠ وجرت بين الفريقين معارك كثيرة في جهات مختلفة ثم فاز على النمسويين فوزاً مبيناً امام درسدن . ثم الغيت مملكة وستفاليا وانضمت باڤاريا الى النمسا فتقلب خصومهُ عليهِ عند ليبسغ واضطرّ ان يرتد ببقية جنودهِ . وعرض عليهِ خصومهُ حينئذٍ ان يتخلى عن كل ما فتحهُ من البلدان فلا يبقى لفرنسا خارج تخومها الاصلية غير بلجكا وساحل الرين الايسر وسائوى ونيس فلم يقبل فاعلن خصومهُ انهم يحاربون نبوليون لا الشعب الفرنسوي وزحفوا على فرنسا من ثلاث جهات . وكان لا يزال واثقاً بما بين خصومهِ من التنافس وبما بينهُ وبين امبراطور النمسا من المصاهرة وبغيرة الشعب الفرنسوي اذا رأى العدو مجتاحاً بلادهُ لكن الحلفاء لم يمهلوهُ ليستفيد من هذه الامور بل اقذُوا السير

نحو باريس ولم تكن محصنة فتمتنع عليهم فقابلهم بما اعطيهُ من مهارة فائقة في الفنون الحربية وهاجم بلوخر قائد الجيوش الالمانية وانتصر عليهِ في اربع معارك في اربعة ايام من ١٠ الى ١٣ فبراير ١٨١٤ وكان في طاقتهِ حينئذٍ ان يصالح خصومهُ على شروط صالحة لكن عزة نفسهِ ابت عليهِ ذلك فلجأ الى المحاولة واخيراً وقّع معاهدة في اول مارس من مقتضاها ان لا يبقى عند كل من الفريقين الاّ ١٥٠٠٠٠ جندي مدة عشرين سنة . ثم حدثت معركتا كراون Craonne ولاون Laon فرأى ان قوتهُ ضعفت ومن ثم صمم الحلفاء ان يزحفوا على باريس وحاول نبوليون وقوادهُ صدهم عن ذلك فلم يفلحوا. وهاجم الحلفاء باريس في ٣٠ مارس من ثلاث جهات فاستسلمت حاميتها وبادر نبوليون اليها لكي يمنعهم من دخولها فوصل بعد ان سبق السيف العزل واضطر أن يرتد الى فونتبلو واتفق حينئذٍ ان دوق ونتون وكان قد اخرج الجنود الفرنسوية من اسبانيا دخل فرنسا ليعاون الحلفاء فجاء ذلك ضغثاً على إبالة

وعرض نبوليون حينئذٍ ان يتنازل عن الملك لابنهِ فلم يُجب الى ذلك فتنازل بتاتاً من غير شرط وذلك في ١١ ابريل سنة ١٨١٤ فاعطي جزيرة البا ليكون متسلطاً عليها واعيد الملك الى آل بربون في شخص لويس الثامن عشر . لكن رجوع البربون لمبرض الامة الفرنسوية فعاد نبوليون الى فرنسا في ٢٠ مارس سنة ١٩١٥ وللحال انضم اليهِ الجيش وظهر كأنهُ جاء لانقاذ فرنسا من خصومها وان هذا الانقاذ لا يكون الاّ بالسيف اما هو فكان قد سمن وضعف جسمهُ واعتراهُ الارق مع بقاء عقله على مضائهِ فدبر معركة وترلو تدبيراً على غاية الاحكام من الوجهة الحربية لكن الجو عاكسهُ فتغلب خصومهُ عليهِ واضطرّ اخيراً الى الاستسلام للقدر وعاد الى باريس وتنازل عن الملك ثانية في ٢٢ يونيو وسلم نفسهُ لميتلند Maitland ربان احدى السفن الانكليزية حاسباً انها تأخذهُ الى انكلترا فيقضي فيها باقي حياتهِ لكن الحلفاء كانوا قد قرروا نفيهُ الى جزيرة القديسة هيلانة فوصلها في ١٥ اكتوبر ١٨١٥ وتوفي فيها ٥ مايو سنة ١٨٢١

هذه خلاصة وجيزة جداً من تاريخ هذا الرجل العظيم وستأتي في الجزء التالي على خلاصة ما فعلهُ للعلم والعمران